النحو بين التأسيس واللسانيّات

الأستاذ الدكتور مهدي صالح سلطان
جامعة الإمام جعفر الصادق عليه السلام - العراق
mahdi.saleh@sadiq.edu.iq

Arabic Grammar between foundation and linguistics

Prof. Mahdi Saleh Sultan
Imam Jaafar Al-Sadiq (P) University , Iraq

الملخص:-

جرى في اللقاء التاريخيّ بين أبي الأسود الدُؤَليّ وأمير المُؤمنين ع ــ في البصرة بعد معركة الجمل سنة ٣٦ ه قبل انتقاله إلى الكوفة ــ تداول مشكلة اللحن والخطأ في قراءة القرآن الكريم، بوضع الخطوات الأولى في تأسيس النحو، التي تمَّمها فيما بعد تنفيذ نقط المصحف الشَّريف نقط إعراب؛ وبهذا اللقاء المبارك انفتحت آفاق التفكير في دراسة خصائص لغة القرآن الكريم، وانكشفت أسرار العربيّة، استنادًا إلى تمييز الحروف والكلمات على أسس تجريبيّة محسوسة مدركة في النطق والسماع والنّظر، بملاحظة ذاتيّة (Introspection)، ووصفيّة (Descriptive)، أي أنّ استعمال المحسوس الصوتي في النطق والسماع والكتابة مكّن من تمييز تنوّع صوت الحرف الواحد بالضبط المختلف، وهو الأصل الوصفي في التأسيس لعلم النحو؛ وبتثبيت الوحدة الصوتية اللغويّة التمييزيّة التي ترافق الحرف العربيّ، بما يقابل اكتشاف الفونيم (Phoneme): (أصغر وحدة صوتيّة، عن طريقها يمكن التفريق بين المعاني) (دراسة الصوت اللغويّ ١٧٩)، بملاحظة كيفيّات النطق المختلفة، ووظائف الأصوات المتنوّعة؛ وهذا هو ما بدأ به الدرس اللغويّ الحديث بالتحليل الصوتي، بمثل ما ابتدأ به الدرس اللغويّ العربيّ، و(لقد اختارت مدرسة البنيويّة الأمريكيّة بريادة بلومفيلد، عبر كتابه الذائع الصيت (علم اللغة) عام ١٩٣٣، الصوت نقطة بداية الدرس اللغوي؛ ثمّ يُبنى عليه علم الصرف، أي دراسة الكلمة وأجزائها، ليكون هذا الكلام أساسًا لدراسة الجملة) (اللغة العربيّة واللسانيّات المعاصرة ٥٦ ـ ٥٧).

الكلمات المفتاحية: الإمام علي، القرآن الكريم، أبو الأسود الدؤلي، تأسيس النحو، اللسانيات، ضبط الحروف، التفكير اللساني.

Abstract:-

During the historical meeting between Abu Al-Aswad al-Du'ali and Ali Bin Abi Talib (PBUH) - in Basra after the Battle of the Camel in year 36 AH prior to moving to Kufa - a discussion of problem of reading and pronunciation of Holy Qur'an was conducted, in which the first steps in Arabic grammar were established. This was later complemented by implementation of punctuation of Holy Qur'an. Thereafter, with this blessed meeting, intellectual prospects were feasible to study characteristics of the language of Holy Qur'an. Secrets of Arabic language were revealed, based on distinguishing letters and words on perceptible and perceptive bases of speech, hearing and consideration, through introspection and descriptive methods.

Key words: Imam Ali, The Noble Qur'an, Abu al-Aswad al-Dawali, grammar foundation, linguistics, letter control, linguistic thinking.

المقدمة:

انطلقت الأفكار التأسيسيّة الأولى للدرس اللغويّ العربيّ في اللقاء التاريخيّ بين أبي الأسود الدُّؤَليّ والإمام أمير المُؤمنين ع، في الشهر الذي قضاه الإمام في بيئة البصرة الفاعلة والخلّاقة، التي تقدّمت كلّ المدن الإسلاميّة في انبثاق العلوم ورعايتها، فجرى حينها تداول مشكلة اللحن والخطأ في قراءة القرآن الكريم، وكان أبو الأسود المؤدِّب الذي يدرّس العربيّة ويواجه اللحن ويعاني منه في البصرة قبل مجيء الإمام بنحو عقد ونصف من السِّنين؛ وكان ذلك الانطلاق بعد معركة الجمل سنة ٣٦هـ، وقبل انتقال الإمام إلى الكوفة.

أمّا نتائج هذا اللقاء فالخطوات الأولى في تأسيس النحو، التي تمَّمَها فيما بعد تنفيذ نقط المصحف الشَّريف نقط إعراب؛ وبهذين الأمرين انفتحت آفاق التفكير في دراسة خصائص لغة القرآن الكريم، وانكشفت أسرار العربيّة، ودخل من جاء من بعدِ أبي الأسود المدخل الصحيح إلى معرفة علوم اللغة العربيّة بدءاً من تمييز أدوات تحليلها، ووسيلتها في الكشف عن مقاطعها وكلماتها وتراكيبها، ومن أهل القرآن وخاصته، الذين انقطعوا له وداوموا على قراءته وحفظه وتدبّر ألفاظه ومعانيه، وهذا معروف متواتر لاخلاف فيه؛ يُؤثرُ عن أبي الأسود الدؤلي، وأبو الأسود ينسب التوجيه به إلى الإمام، فيذكر السيرافي: (أخذ أبو الأسود عن عليّ بن أبي طالب ع العربيّة، فكان لا يُخرجُ شيئًا ممّا أخذه عن عليّ بن أبي طالب ع إلى أحد) (أخبار النحويين البصريين ١٢).

فكانت هذه الخطوات هي التدابير الصحيحة للانطلاق التي تنبئ عن سلامة ما وُضِع، إذ إنَّ الذي نقَّط المصحف كان قد تأمّل طريقة نطق الكلمات ومقاطعها، وهذا واضح وجليّ، فهذا الإنجاز قد فتح مغاليق البحث في الألفاظ والمعاني، والمرجع الأساس في معرفة الصحيح من السقيم، والمدار الذي دارت به منظومة الإعراب، قضية النحو المركزية سابقاً وحاضراً ومستقبلاً، فالأحكام النحوية بحسب الإعراب، وتكاد تكون مضمون هذا العلم، على وجه الشمول والعموم والإطلاق، وهو موضع عناية أهل القرآن، ومن صميم اللغة وطبيعتها ونظامها، ولا يصلح لسواها، وبعيداً كلّ البعد عن الفلسفة وما يحيط بها، ولا صلة له بالثقافات الأجنبية ولاسيّما في أول وضعه؛ وقد صدر عن أقرب الناس من رسول الله ﷺ، واتصل بأقدس نصّ سماوي.

لكنْ هناك مَن يزعم أنَّ جذور هذا العلم موجودة قبل الإسلامَ، وكانت الأيّام قد أتت عليه، وقلّ في أيدي الناس، ثمَّ جدّده أبو الأسود وأحياه واقتفى أثره (الصّاحبيّ في فقه اللغة لابن فارس ٢٢)، وعلى هذا الزّعم يكون العلم موجوداً وأراد الإمام إعادة تدويه، بعد وجدان فساد الألسنة، وأمر أبا الأسود باتّباعه، إذ قال له: انحُ هذا النحو(نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء ٢)، أي اتّجه هذا الاتّجاه.

المبحث الأوّل

أهميّة ضَبط حروف القرآن الكريم

كان الضبط القرآنيّ بنقط الحروف نقط إعراب قد إلى المطابقة بين فتح الفم بالحرف ووضع الكاتب نقطة على أعلى هذا الحرف، وإذا ضُمّ فالنقطة بعد الحرف، وإذا كُسِرَ الفم فالنقطة تحته (مراتب النحويين١٠ ـ ١١)، وتحقَّقَ بهذا النّقط فتح آفاق التفكير في أسباب حصوله، إذ رافق هذه الخطوة التصنيف على وفق نظير الضبط: الفاعل، والمفعول، والإضافة، وكانت هذه هي مرحلة الآليات التي أساسها التفكير بتمييز الحروف بعلامات، تضبط الأبنية والتراكيب، وتمنع من وقوع الخطأ، عبّر عنها ابن خلدون الانتقال من الملكة إلى القوانين، (يقال بإشارة عليّ لأنّه رأى تغيّر الملكة، فأشار عليه بحفظها، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة) (المقدمة ٥٩٩)؛ التي انبثقت من الحرص على النصّ الشريف وحاجة متداول القرآن الكريم، وليس هناك أمة اعتنت بلغتها وألّفَتْ في علومها مثلما كان المسلمون في التأليف فيها والعناية بها.

نقول هذا لأنّ المشتغلين بالقرآن المتفرغين له، يعرضون لمواجهة ما يجدون من لحن، ويعنيهم التصدّي له، لكنّه ظلّ سبباً من الأسباب، (ولم يكن هذا العمل يهدف إلى حفظ النص من اللحن فقط كما وَقَرَ في الأذهان، وإنما كان يهدف إلى غاية أبعد في أصول الحياة الإسلامية. ذلك أنّ المسلمين عرفوا ـ بداية ـ أنّ عليهم أن يقرؤوا القرآن وأن (يفهموه) لأنه هو الذي ينظم حياتهم، ومن ثمّ نستطيع تفسير نشأة الحركة العقلية العربية كلها بأنها نتيجة نزول القرآن الكريم، فهي كلها من نحو وصرف وبلاغة وتفسير وفقه وأصول وكلام تسعى إلى هدف واحد هو ـ فهم ـ النص القرآني الكريم) (دروس في المذاهب النحوية ١٠، وينظر: أبنية الفعل ١٢٦).

ولِما تقدم يُرجح أنّ خطوة الضبط، هيّأت لتعيين الأبواب أو الحقول النحوية، قال الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح: (إنّ في النقط بالضرورة ما يدلُّ على الإعراب؛ فقد استقرَى أبو الأسود وأصحابه النصّ القرآنيّ آية آية لنقطه؛ فلا يُتَصوّر أن يستمرّوا في هذا العمل الذي يتطلّب الانتباه الشديد ولا يتفطّنوا إلى شيء مثل هذا: وهو استمرار وجود النقطة المشيرة إلى الضمّة مع هذا اللفظ الذي يدلّ على الفاعل واستمرار النقطة الدالة على الفتحة لهذا اللفظ الآخر الذي يدل على المفعول وهكذا، ثمّ إنّ هذين المصطلحين هما بنفسيهما دليلان على قدمَهُما فقد سماهما أبو الأسود الفاعل والمفعول بالنظر إلى المعنى لا حقيقة الإسناد النحويّ؛ وهذا التصوّر العلميّ الذي هو الإسناد يرجع عهده إلى ما بعد أبي الأسود؛ وهكذا فقد كان النقط الدال على الحركات والمميّز خاصّة بين الوظائف النحويّة الثلاث الأساسيّة سببًا مباشرًا لتأسيس النحو أي العربيّة في الاصطلاح القديم) (منطق العرب في علوم اللسان ١٨).

فالتأسيس بالنقط رفع التوهّم عن الحرف، بضبط نطقه بالعلامات الكتابيّة، وتمييز أصغر أجزاء الكلمة والجملة، وهو مدخل حسّي تجريبي يستند إلى المسموع والمنطوق في تقييد الحرف بضبطه بهذه العلامات الكتابية، ففي الضبط الصحيح توصّلٌ إلى تقييد الكلام وتثبيت نظام العربيّة، ونَصرَ هذا الذي تحقق ورصّنه أنّه جاء من أهل القرآن، من أعلى مصادر قراءته، ومن أوثق مراجعه، ومن الذين انقطعوا إليه، وانصرفوا إلى تدبّره، والحفاظ عليه.

ولابدّ لأبي الأسود الدؤلي أن لاحظ ارتباط اختلاف الضبط بنظام اللغة ودلالة الجمل، وهذا يتضح من المثال الاستثنائيّ العتيد، المأخوذ من خطأ ابنة أبي الأسود في حوارِها مع أبيها: ما أجملُ السّماء؟ فهذا هو ضبط جملة الاستفهام، أمّا ضبطُ جملة التعجبِ فـ: ما أجملَ السّماءَ !، وقد تختلف عبارات هذا المثال، لكنه بالمكانة المرموقة من تأسيس علم النحو، جاء في الإيضاح: (حُكي عن أبي الأسود الدؤلي أنه لّما سمِع كلام المولدين بالبصرة من العرب، أنكر ما يأتون به من لحن لمشاهدتهم الحاضرة وأبناء العجم. وأن ابنة له قالت له ذات يوم: يا أبه ما أشدُّ الحرِّ؟ فقال لها: الرمضاءُ في الهاجرة يا بُنيّة. أو كلاماً نحو هذا، لأن في الرواية اختلافاً، فقالت له لم أسألك عن هذا، إنما تعجبت من شدّة الحرّ. فقال لها: قولي إذًا: ما أشدَّ الحرَّ !. ثمّ قال فسدت ألسنة أولادنا) (٨٩).

ويتأكّد منهج الضبط بوضع العلامات، من الرواية التي تشير إلى توجيه الإمام عليّ لأبي الأسود، إلى ما يُمكّن من الضبط، في قوله: (اجعل للناس حروفًا، وأشار له إلى: الرفع والنصب والجر) (مراتب النحويين ٢٤).

فالاهتمام واضح بظاهرة الربط بين ضبط الحروف صوتيًّا ودلاليًّا، أو ما يعبّر عنه بالإشارة إلى الحروف والعلامات ودلالاتها، وهذا هو موضع انطلاق هذا العلم؛ الذي يقول الدكتور حلمي خليل عن مثل هذا التحليل: (إنّ النظام الفونولوجي ينظر إلى الأصوات ويحلّلها من خلال وجودها في بنية لغويّة) (مقدمة لدراسة اللغة ١٩٣).

لذا نستطيع أن نقول: إنّ المتحقق من التأسيس الأوّل لعلوم العربيّة مكّن المتعلّمين من آليّة جديدة، جعلت النّصّ القرآنيّ الكريم الذي كان خاليًا من علامات الضبط مضبوطًا بهذا النقط، وأساس الضبط المطابقة بين المنطوق والمسموع والمكتوب بعلامات تُميّز كلّ حرف من حروفه.

أمّا النّظر إلى ما عند الغربيين ممّا يوازي ضبط الحروف العربيّة؛ فينفي الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح التفكير في الحرف المتحرّك والحرف الساكن في تداول العلماء الغربيين نفيًا لا فتًا، فهو يُنبّهُ على فارقٍ لا بُدَّ من لحظه، في قوله: (أوّل من تفطّن إلى هذا سوسير في عصرنا هذا، المتحرّك عنده ما يسمّيه Explosive والساكن Implosive ولا يوجد هذان عند أحَدٍ قبله إلّا عند العرب، وأثبتت التكنولوجيا الحديثة أنّهما حقيقة ملموسة وبالتالي ضرورة الاعتماد عليهما في البحث العلميّ والتعليم) (بحوث ودراسات في اللسانيّات العربيّة ٢/٢٧٠).

المبحث الثاني

التأسيس وأثره فيما بعده

من يراجع خطوة ضبط حروف القرآن الكريم، وكيف حُدِّد تنوّعها، يجدُ التلازمَ بين النطق والسماع واختيار العلامة الرمزيّة المنظورة المناسبة لجزء الكلمة، وهذا هو الذي أدّى إلى اكتشاف أثرها في تمييز بناء الكلمة الواحدة والجملة الكاملة، فبالنقط انفتح أمام قارئي القرآن ودارسي اللغة ما وجدوه ينتظم ويَطّرِد في الحروف والكلمات المفردة أو في الجمل

والنصوص، وهكذا صار النقط متمِّمًا للحرف، والأساس في تحديد الوحدات اللغوية وربط مقاطع اتصال الحروف والكلمات والجمل، وكان له ـ فيما بعد ـ الشأن الكبير في تقعيد اللغة وتعليمها وتداولها. فالتلازم بين (الحرف والحركة) مدار النظر إلى بنية كلمات اللغة ومنطلق ضبطها، ومن ثَمّ البدء بحسبهما بتأسيس علوم اللغة العربيّة، وهذا الوضعُ هو الأساس المعتمد فيما بعد مرحلة التأسيس، أي أنّ انطلاق التفكير اللغوي العربيّ كان من دقّة ضبط الحرف بالحركة في تداول القراءة القرآنيّة التي (كانت نقلًا محضًا، وقد أخذ النحو منها هذا الأصل، وكان ذلك حقيقًا أن يقدّم النحو العربيّ جانبًا وصفيًّا لا يُخطئه التتبع المنصف) (النحو العربيّ والدرس الحديث ٥٣)؛ واتّصل النحو بتمييز صوت الحرف الواحد وكذلك بتصنيف الكلمات، وتبويبها بحسبِ ما يُلحظُ من أثرٍ لهذا الضبط على الأقسام، استناداً إلى ما يجمع أو يُفرّق بين الكلمات المضبوطة، وكذلك على الأقسام التي يمكن أنْ تدخلَ في مجموعات أو جداول، يميّزها المتأمّل، في أقسام موجودة في أكثر اللغات الإنسانيّة، وهي مباني التقسيم، أو أقسام الكلام، ومباني التصريف، ومباني القرائن التركيبيّة (اللغة العربيّة معناها ومبناها ٨٢ ـ ٨٣).

ونستدلّ بمثل ما قاله الدكتور تمّام حسان في إمكان الإفادة من (الحرف والحركة) في الفرز والتصنيف، بما نميّز به بين الأشياء والأشخاص، شرط وضوح المراد فرزه وتصنيفه، فـ (من السهل أن نعرف هذه العلاقات بنوعيها، بواسطة الملاحظة على ما ندرك أوجه الشبه، والفروق بين الأشخاص والأشياء، ومن ثمّ تصبح سهولة العمل التصنيفي وصعوبته مرتبطة بوضوح المفردات أو خفائها، لكنّه في النهاية ليس من الجهود العقلية الشاقة) (الأصول ٥٦).

وقال أيضًا: (تتمّ الدراسة الحسّيّة بالملاحظة والتسجيل قبل محاولة أيّ تفكير تجريدي يرمي إلى استنباط العلاقات، التي تجمع أو تفرّق الأصوات التي جرت ملاحظتها في إطار لغوي ما، ومن ثمّ تعتبر دراسة الأصوات مقدمة لا بُدّ منها لدراسة النظام الصوتي والنظم اللغويّة الأخرى) (اللغة العربيّة معناها ومبناها ٦٦)، لكنّ الدكتور يميّز بين ملاحظة الكلام ودراسة اللغة، لأنّ الكشف عن النظام من عمل الباحث، وهنا نشير إلى الربط بين الضبط والأبواب النحويّة الأُوَل، ما يمكن أن يكون جمعًا بين ملاحظة الكلام والتصنيف (اللغة العربيّة معناها ومبناها ٦٦).

فالبَـدْءُ بـالتفكير في العلامـات الصـوتيّة (الحـرف والحركـة) مـدخلٌ إلى الـتفكير في الكلمـات، إذ يـربط الـدكتور سمـير استيتيّة باعتنـاء علمـاء القـراءات بضبـط الكلمـات، مـن الذين (جعلوا دراسة الأصوات سبيلًا إلى تفسير التغيّرات الصرفيّة، أي أنّ دراسة الصرف لا يمكـن عزلهـا عـن دراسـة الأصـوات؛ فهـم أوّل مـن وضـع قواعـد علـم الـنُظَم الصـوتيّة phonology، وعلم الصرف الصوتي morphonology. وأكثر الكثير ممّا قالوه في ذلك صحيح لا تنقصه المعرفة الحديثة في هذين العلمين) (اللسانيّات المجال والوظيفة والمنهج ١٨).

وبهذا يكـون أبـو الأسـود قـد وضـع بـين يَـدَي مـن جـاء مـن بعـده الأسـس لعلـم النحـو بوضع العلامات الكتابيّة الخالدة المعبّرة عن النطق بالكتابة، التي بها كَمُلَ ضبط الحرف العربيّ في أيّ موضـع مـن مواضـع كلمتـه، وبهـا ظهَـرَ تنوّعـه، وكانـت تلـك العلامـاتُ هـي الوحـدات المحسوسـة الـتي ينتهـي إليهـا التحليـل اللغـويّ، وهـي المنطلـق إلى معرفـة مكونـات السلسلة الكلاميّة، وقد ارتبط تغيّر هذه العلامات من أوّل وضعها بتمثيل الأصوات المنطوقة من جهة، وبالتصنيف وبالأبواب النحويّة الأُوَل من جهة أخرى، وبالأساليب التي قـد تتغيّر بحسب تغيّر هذه العلامات من جهة ثالثة، ذلك ما يجده المتتبّع والمتأمل لروايات تأسيس النحو. ووجد تلامذة أبي الأسود بهذا الضبط إمكان تنوّع الحرف الواحد، واختلاف ضبط الكلمة الواحدة، وإنّ استقامة المعنى الوظيفي للكلمات تتحقق بعلامة الضبط الصحيحة، وقد نقل أبو الأسود الحرف من العام المحتمل المتعدد، إلى المحّدد بالضبط في سياق جملته، وهو ما سمّاه علم الدلالة الحديث بالكلمات الشكليّة المبهمة التي لا معنى لها في المعجمات، ولها معنى قواعدي يتضح من الربط والسياق اللغوي، ولا يوصف منفرداً، إلاّ متصلاً بغيره (علم الدلالة لبالمر ٤٠ ، عن دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء ٢٥٥).

وبهـذا الضـبط دُوّنـت الصـوائت المنطوقـة كتابيّـاً، مباشـرة مـن نسـيج الكـلام واتصـال أجزائه، ومن منظور ومسموع في قراءة حيّة لنصّ القرآن الكريم، فالناطق ينطق، والكاتب يكتب على وفق ما يشاهد من تغيّر هيأة فـم النـاطق، ويسـمع مـن طريقته في الأداء، فيثبت الكاتب العَلَامة المناسبة التي تظهر الصائت وتبيّن موضعه من تحليل الكلام إلى مقاطعه، قال فنـدريس: (لاتوجـد في اللغـات أصـوات لغويـة منعزلـة. وهـذا لا يعـني فقـط أنّ الأصـوات اللغوية لا توجد مستقلة وأنها لاتحلل على انفراد إلاّ بنوع من التجريد، إذ إنها في كل لغة

تكوّن نظاماً مترابطاً. لكنّ معنى هذا أيضًا أنها لا تستعمل على انفراد فلا يُتكلم إلاّ بمركبات من الأصوات اللغوية. فأقل جملة وأقل كلمة تفترض سلسلة من الحركات النطقية المعقدة وقد تركبت فيما بينها) (اللغة ٨٣، ومبادئ اللسانيات ١٤١).

فبفضلِ ضبط أبي الأسود الدؤلي تحوّلت كتابة حروف العربيّة من مرحلة إلى مرحلة، فأمام ناظرَي القارئ والباحث بعد الضبط: الحروف مُعلمَة بعلامات مختلفة، تبيّنُ ضمّ الشفتين بالحرف، أو كسرهما أو فتحهما، وكان ترك العلامة علامة للوقف والسكون، واستقرّت منتظمة مع الحروف، فلا حرف من دون حركة، ولا حركة من دون حرف، فالعلامات مع الحروف في نسيج الكلمات والجمل والنصوص، وصار لها الاعتبار والمكانة المعلومة المعروفة، سواء أضُبِطَ بها الحرف أم لم يضبط؟! إذ إنّ اختفاءها قصداً من الكاتب أو إهمالاً بات لا ينفي وجودها، فيفكّر في هذا الضبط القارئ الذي يقرأ والكاتب الذي يكتب، جزءاً يتمّم الحرف ويكمّله، وأداة توضّح بنية الكلمة واشتقاقها، وتبيّن وظيفتها التركيبيّة، وقد ارتبطت هذه العلامة بالأقسام والأبواب النحوية، من أوّل الوضع، ذلك لأنّ التركيز على تقابل الرموز أو العلامات مبدأ من مبادئ الاهتمام والفرز وإظهار الفرق والاختلاف، وقد لحظ النحويون العرب هذا المبدأ وصدروا عنه في تقسيماتهم وتصنيفاتهم؛ (ولعلّ نظام الإعراب الذي فسّروه على أساس القول بالعامل إنما يقوم، في بعض وجوهه، على هذا المبدأ، لذا فإنّهم عملوا في ضبطه ضبطاً منطقياً مطلقاً) (نظرية النحو العربي ٤١).

وهذا الوضعُ هو الأساس المعتمد فيما بعد مرحلة التأسيس، إذ يظهر أثر (الحرف والحركة) في أوّل تقسيم كتاب سيبويه، ف(الحرف والحركة) مرجعه في التمييز بين ثبات حركة أواخر الكلمات، الذي اصطلح عليها بالكلمات (المبنية)، أو في تغيّر أواخرها الذي اصطلح عليها بـ (المعربة)، وكان لهذين المصطلحين: البناء والإعراب (الثبات والتغيّر)، الأساس المهم في تبويب (الكتاب) وتقسيمه، وكذلك التوسّع فيما يقع تحتهما من تفريع وتوجيه وتعليل في التعامل مع البنى اللغويّة.

ويتفرّع عن ثنائيّة الحرف والحركة: ثنائيّة التأسيس، ثنائيّة أبي الأسود، ثنائيّة المبني والمُعرب المستندة إلى ثبات الحركة وتغيّرها، التي ابتنى بحسبها سيبويه نظام كتابه، ومن ثمّ أبدع ثنائيّة المُسند والمُسند إليه، ثنائيّة الجملة العربيّة.

فقد استند هذا البناء بعضه إلى بعض، وكمّل آخره أوّله، وصولًا إلى اكتشاف المنظومة اللغويّة، منظومة الإعراب، استنادًا إلى اكتشاف وحداتها الأساسيّة، وحدات التعيين الصغرى، وحدات أبي الأسود الدؤليّ، التي ابتدأت وحدات قرآنيّة خاصّة ثمّ لغويّة عامّة، ومن أهميّتها أن دار الدرّس اللغويّ بمدارها، حتّى تعاظم شأنها بعد اكتشافها، وقد ابتُنِيَت أبواب النّحو بحسبها، فما الأبواب النّحويّة إلّا التعبير المباشر عن وظائف الضّبط، فكلّ ضبط يقابل بابًا نحويًّا، ضمّ الشفتين والفاعل، وفتحهما والمفعول، وكسرهما والإضافة، والقطع الجزم.

المبحث الثالث

التأسيس والتفكير اللسانيّ

يعترضُ بعض اللسانيين العرب على تقويم المنجز اللغويّ القديم من وجهة نظر لسانيّة حديثة، بعد مضيّ ما يقرب من قرن من الزمان، من التفاعل مع تطوّر هذا الدرس، وتنوّع مدارسه، فضلًا عن الإفادة من جديده ومنطلقاته في فهم ذلك القديم، والعكس صحيحٌ، وصحيحٌ أيضًا أنّ لهذا إطاره الخاص، ولذاك إطاره المختلف (ينظر: القرآن والتأسيس الصّوتي للنحو العربي ١٥١).

ولهذا لا يجد المُنصِف ما يمنعُ من النظر إلى ما عند الآخرين بعد تأكّده من أصالة الوضع النحويّ الأوّل، وفي دفع الشبهات عنه، بالنظر إلى ما يوازيه، أو يقاربه، من مبادئ الدرس اللغويّ الحديث، سعيًا في التأصيل أو التأثيل لهذا الدرس الريادي، وإظهارًا لما له من مكانة مرموقة، تفسر المتغيّرات الصوتيّة المؤثّرة في تشكيل الكلمات في مختلف اللغات (التأثيل والتأصيل والمعجم التاريخي للغة العربية د نزيه قسّيس http://www.aljabha.org/index.asp?i=7337).

فمن الوهم المبالغةُ في إضفاء الخصوصيّة الزائدة على الدرس اللغويّ الحديث، والتهوين ممّا يُقابله من درس لغويٍّ عربيّ قديم.

وهنا لا بُدّ من لحظ اختلاف ما تحقق للعربيّة، من الذي لم تَحظَ به غيرُها، أعني الإنجاز الذي بدأ بتثبيت حروفها ومقاطعها بالعلامات الكتابيّة بِحَسْبِ ما طابق حاجة كتابها (القرآن الكريم)، فكان تمسّك المتصدّين المتبصّرين بنصّ هذا الكتاب ومداومتهم على

قراءته، أن جاؤوا بالتنظير لانتظام الحركات مع الحروف، فكان التوافق بين (الحرف والحركة) وسيلة التمكن من قراءة النصّ الشريف قراءة صحيحة، ومنطلق التنظير لعلوم العربيّة، فكان هذا هو منطلق التقعيد الذي ناسب القرآن الكريم وانطق منه، فالتقعيد بحسب نظام القرآن وتبعًا له، وفي الوقت نفسه كان قد حَقّق استمرار هذه اللغة ودوام تداولها وثباتها، ولهذا تتعذّر موازنة هذا الانجاز الكتابيّ اللغوي الدقيق بما حصل للغات الأخرى من التي كانت قد تغيّرت وانقطعت عن ماضيها (في علم اللغة العام ٦٠).

ولا نُسلّم لما يُنسَبُ إلى اللسانيين ورائدهم سوسير وغيره فيما يقولونه في الكتابة ـ في الأقلّ فيما جرى للغة العربيّة ـ ومنها قولهم بـ (... الطابع المضلل للكتابة... وشهادة الكتابة لا قيمة لها... وإنّ الكتابة لا يمكن أن تستقلَ بأداء الدلالة الكاملة للقيم الصوتيّة أو النطقيّة التي كانت للغةٍ ما، بل لا بُدّ من اللجوء إلى القرائن الأخرى لتحديد المقصود بالرمز المكتوب، وإزالة ما يشوبه من غموض) (في علم اللغة العام ٦٢ ـ ٦٣)؛ وقول أوتوجسبرسن: (إنّ الطريقة التقليديّة لكتابة اللغة الإنكليزيّة أبعد ما تكون عن الاتساق والثبات، فمعرفتنا بأصوات الكلمة لا تساعد على تهجيّها، والعكس صحيح، إذ لا نستطيع نطق الكلمة إلّا إذا عرفنا هجاءَها) (في علم اللغة العام ٦٥)؛ وأنطوان ميبه في قوله: (فاللغة المكتوبة كثيراً ما تكون لغة خاصة لا علاقة لها باللغة المنطوقة) (في علم اللغة العام ٦٢ ـ ٦٥). ونقول: إنّ هذه أحاديث عن خصائص لغات أخرى، وكتابات أخرى، وهذا ما لا وجودَ له في اللغة العربيّة، فعلى اللسانيين العرب إدراك مثل هذا الفارق وغيره، ممّا يخالف المقولات اللسانيّة التي كانت سائدة.

ويؤكّدُ ما نزعم تراجع بعض الغربيين عن بعض هذه المقولات، من مثل ردّهم الاعتبار للكتابة، حتى (انبثق من بين فروع علم اللغة الآن فرع جديد يُعرف بعلم الجرافولوجيا Graphology، أو علم Graphemics وهو علم يتناول كافة (كذا) القواعد المستخدمة في التعبير الخطّي أو الكتابي للكلام، حيث يتضح بجلاء من تطبيق منهج هذا العلم الاختلاف بين الصوت وطرق التعبير عنه بالكتابة) (مقدمة لدراسة اللغة ١٩١).

فلابُدّ أن نميّز نمط الكتابة العربيّة من الكتابات اللغويّة الأخرى، لا لداعٍ من دواعي التعصّب، لكن لواقع مختلف أحدثته النشأة الأولى لعلوم العربيّة، التي صارت بموجبها هذه

الكتابة المضبوطة المرجع اللغويّ لعلوم هذه اللغة، فضلًا عمّا وجدنا من رأيٍ غربيٍّ ينصر ما نزعم حتّى في تلك اللغات، يُقدّم الكتابة، لتكون أصلاً للعلم، ومرجعًا لتأسيس التواصل اللغويّ؛ من مثل ما يُنسب إلى (دريدا) الذي يمكن أن يُرَدَّ به ما تقدّم من تحامل على الكتابة، لأنّ (اللسانيّات المعاصرة ومن خلال تصوّر نموذج اللغة والكتابة اللذين تنتقيهما الميتافيزيقيا الغربيّة، يعبّران برأي دريدا، عن عماءٍ لا مثيلَ له، مُلتفٍّ ومستميت مع مركزيّة لوغوسيّة وصوتيّة، وأخرى عرقيّة، لم يسلم منها حتى أب (كذا) اللسانيّات الحديثة فردينان دي سوسير، حينما انزلق مع التيّار الجارف بسهولة فاضحة) (اللغة والمعنى ٢٦٢).

ودريدا نفسه (يعتبر الكتابة في الجراماتولوجيا أصلًا للعلم وللتاريخانيّة من خلال تأسيس علم الكتابة، فإنه يتصوّر ذلك بطرحه لمفهوم كتابة تكون سابقة على الكلام وسببًا لوجوده أيضًا، هذه الكتابة هي ما يُعرف بالكتابة الأصليّة، خلافًا لما كان يؤسّس فهم الكتابة داخل تقاليد الميتافيزيقيا كشيءٍ يأتي بعد الكلام... إنّ الكتابة الأصليّة تمثّل التصوّر الجديد الذي يتجاوز الضرورة التي أملتها إجراءات استعمال المفهوم المبتذل للكتابة... الكتابة الأصليّة عند دريدا التي تعني... الأثر الخالصtrace pure) (اللغة والمعنى ٢٥٥، ٢٥٧)، وهي أقرب إلى المثاليّة لأنّ دريدا (قلب المنطق الميتافيزيقي والفلسفي القديم الذي جعل من الكلام ومركزيّة الصوت أساسًا وحيدًا لتصوير نموذج التواصل الأمثل، من خلال تصوّر تواصل آخر، يعتمد على الكتابة والعلامة الخطّيّة... ليصبح... كلُّ شكلٍ من أشكال التواصل كتابة) (اللغة والمعنى ٢٥٨).

فالكتابة في التراث العربي الإسلاميّ محاولة لتمثيل اللفظ، وجاءت علامات ضبط حروف اللغة العربيّة، أو الحركات لتكمّل هذه الحروف، (وقد يكون أبو الأسود الدؤلي قد استدلّ بالشكل الذي يأخذه الفم عند نطق الحركات في اختياره لمواضع كتابة رموز هذه الحركات من نحوِ وضعِه رمز الضمة إلى جانب الحرف، ورمز الفتحة فوق الحرف ورمز الكسرة تحت الحرف) (دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء ١٩١).

(ولّما كانت الأصوات هي دعامة اللغة الأساسيّة، كان لا بُدّ لها من الدخول المباشر في صيغها وأبنيتها التركيبيّة، سواء على مستوى النظم (Syntax)، أو على مستوى الدلالة (Semantics)، أو على مستوى الصرف (Morphology)، أو على مستوى المعجم

(Lexicogrophy)، وإنّ أيّ دراسة لغويّة لا تأخذ بعين الاعتبار الجانب الصوتي، كملحظ أساس، تُعَدُّ قاصرة، وغير منتجة، إذا كنّا نَعُدُّ اللغة منظومة محكمة البنية) (علم الصرف الصوتي ٢٨ - ٢٩).

وهذا هو ما بدأ به الدرس اللغويّ الحديث بالتحليل الصوتي، بمثل ما ابتدأ به الدرس اللغويّ العربيّ، ذلك في قول الدكتور مجيد الماشطة: (لقد اختارت مدرسة البنيويّة الأمريكيّة بريادة بلومفيلد، عبر كتابه الذائع الصيت (علم اللغة) عام ١٩٣٣، الصوت نقطة بداية درسها... phonology ثمّ بُنِيَ عليها علم الصرف، أي دراسة الكلمة وأجزائها، ليكون هذا الكلام أساسًا لدراسة الجملة) (اللغة العربيّة واللسانيّات المعاصرة ٥٦ - ٥٧).

ومعلوم أنّ الخطوة الأولى في التأسيس لعلم اللغة العربي هي اكتشاف هذه العلامات التي تميّز الحرف الواحد، وتضبطه وتعيّن تنوّعه، وقد تحققَ بهذه الخطوة الكبيرة معرفة قانون التلازم بين الحرف وحركته، وإقرار قانون ثنائيّة (الحرف والحركة)، ومن ثَمّ (المبني والمعرب)، إذ لا بُدّ من الحركة، ولا يستقلّ الحرف عن الحركة، في تأليف الكلمة الواحدة، أو ما تتركب منه العبارات والجمل، فالحركة هي التي تكمّل الحرف، وتميّزه نطقًا، وسماعًا، ومن ثمّ كتابة، وهذه هي الخطوة المهمّة، خطوة ضبط الكلمات العربيّة، من أوّلها وأوسطها وآخرها.

أي أنّ البَدءَ كان من اكتشاف آليّة إظهار علامات الضبط بالكتابة، الموافقة لحاجة تنوّع حروف اللغة العربية وكيفيّة نطقها نطقًا دقيقًا، بعد أن كانت هذه الدقة تُتلقّى فقط عن طريق السماع قبل تنفيذ أبي الأسود للنقط بالعلامات، وكان النقط موافقًا لطبيعة هذه اللغة، وجاء من تداولها القرآنيّ العالي، وقد وعى أبو الأسود الدؤلي ضرورة إظهار هذا الضبط بالعلامات الكتابية، التي وجهتِ الدارسين لاحقًا وجهة التفكير العلمي في بناء الكلمات والجمل، استنادًا إلى تحسّس أثرِ هذا الضبط بهذه العلامات، وكان هذا اكتشافًا لأصغر وحدة لغوية محسوسة في النطق والسمع والكتابة، وقرينة من القرائن الدلاليّة التي يُبان بها عن المعاني، وتُعرفُ بها أغراض المتكلّمين، ويُزال اللبس، ويُظهرُ الفرق بين المعاني المختلفة (الخصائص ٣٦/١)، فلا بُدَّ لمتداول اللغة من وعيها، ومعرفة أثرها، إن كتبت أو لم تكتبْ، فهي من جملة محدّدات ضبط ما يقرأ القارئ، أو يكتب الكاتب.

وبهذا أسّس المؤسّس اعتماد ما يكمّل الحرف ويُميّزُه، ويظهر تنوّعه، وذلك ما ينتهي إليه التحليل اللغويّ أي (الحرف والحركة)؛ لأنّ الضبط بالنقط هو المدخل الذي انبثق من حاجة اللغة العربيّة، والوسيلة التي صارت تُعِينُ القارئَ في التأكّد من النطقِ الصحيح، وهي الأداة التي أفاد منها اللغويون في التحليل المقطعي: الصوتي والصرفي والتركيبي، ومن ثَمّ إدراك سرّ منظومة الصرف والإعراب.

وكان ذلك التأسيس قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بمؤسس هذا العلم، وبما حققه في التمكّن من ضبط الكتابة القرآنية، التي كان بها حاجة أكيدة إلى التقييد والتحديد، ليطابق هذا المكتوب المسموع والمنطوق، ومن الضبط وبسببه ابتُنِيَت علوم العربية، إذ إنّ تقييد المشافهة بالضبط الكتابي المعروف، أفضى إلى التفكير في تسويغ اختلاف الضبط لاختلاف الأبنية والتراكيب، ومن هنا كان التفكير في تحديد البناء الصوتي الذي يؤثر في معرفة البناء الصرفي والنحوي؛ لذلك نجد أنّ الصلة أكيدة بين مقطع الحرف صوتيًا وصرفيًا ونحويًا، وأنّ ضبط المقطع الصوتيّ أسس لضبطه الصرفيّ، واستند التركيب إلى الضبط الصوتيّ والصرفيّ معًا.

المبحث الرابع

التأسيس والعلامات

عيّن أبو الأسود بضبط حروف القرآن الكريم، ما يُكمِّلُ الحروف، بالحركات الصوائت كتابيّاً (مبادئ اللسانيات ١٣٥)؛ فتميّز بحسب هذا الاكتشاف أجزاء الكلمات التي تتألّف منها الوحدات الأساسية للحروف والكلمات والجمل، كشفاً عبقريّاً خالداً معزّزاً، بالأبواب النحوية التي تقابل أجزاء علامات الضبط، حتّى أنّ من جاء من بعده لم يستدرك عليه، في زيادة أو نقصان لعدد هذه الوحدات؛ فكان كلّ ذلك بما يناسب بناء الكلمة ووظيفتها وأسلوب جملتها، وأصبح اختلاف الضبط لاختلاف الألفاظ والمعاني.

وبهذا الضبط دُوّنت الصوائت المنطوقة كتابيّاً، مباشرة من نسيج الكلام واتصال أجزائه، ومن منظور ومسموع في قراءة حيّة لنصّ القرآن الكريم، فالناطق ينطق، والكاتب يكتب على وفق ما يشاهد من تغيّر هيأة فم الناطق، ويسمع من طريقته في الأداء، فيثبت الكاتب العلامة المناسبة التي تظهر الصائت وتبيّن موضعه من تحليل الكلام إلى مقاطعه، قال فندريس: (لاتوجد في اللغات أصوات لغوية منعزلة. وهذا لا يعني فقط أنّ الأصوات

اللغوية لا توجد مستقلة وأنها لاتحلل على انفراد إلاّ بنوع من التجريد، إذ إنها في كل لغة تكوّن نظاماً مترابطاً. لكنّ معنى هذا أيضاً أنها لا تستعمل على انفراد فلا يُتكلم إلاّ بمركبات من الأصوات اللغوية. فأقل جملة وأقل كلمة تفترض سلسلة من الحركات النطقية المعقدة وقد تركبت فيما بينها) (اللغة ٨٣، ومبادئ اللسانيات ١٤١).

وبفضل ضبط أبي الأسود الدؤلي تحوّلت كتابة حروف العربيّة من مرحلة إلى مرحلة، فصار أمام ناظرَي القارئ والباحث بعد الضبط: الحروف مُعلمَة بعلامات مختلفة، تبيّنُ ضمّ الشفتين بالحرف، أو كسرهما، أو فتحهما، وكان ترك العلامة علامة للوقف والسكون، واستقرّت منتظمة مع الحروف، فلا حرف من دون حركة، ولا حركة من دون حرف، فالعلامات مع الحروف في نسيج الكلمات والجمل والنصوص، وصار لها الاعتبار والمكانة المعلومة المعروفة، سواء أضُبِطَ بها الحرف أم لم يضبط؟! إذ إنّ اختفاءها قصداً من الكاتب أو إهمالاً بات لا ينفي وجودها، فيفكّر في هذا الضبط القارئ الذي يقرأ والكاتب الذي يكتب، جزءاً يتمم الحرف ويكمّله، وأداة توضّح بنية الكلمة واشتقاقها، وتبيّن وظيفتها التركيبيّة، وقد ارتبطت هذه العلامة بالأقسام والأبواب النحوية، من أوّل الوضع، ذلك لأنّ التركيز على تقابل الرموز أو العلامات مبدأ من مبادئ الاهتمام والفرز وإظهار الفرق والاختلاف، وقد لحظ النحويون العرب هذا المبدأ وصدروا عنه في تقسيماتهم وتصنيفاتهم؛ (ولعلّ نظام الإعراب الذي فسّروه على أساس القول بالعامل إنما يقوم، في بعض وجوهه، على هذا المبدأ، لذا فإنّهم عملوا في ضبطه ضبطاً منطقياً مطلقاً) (نظرية النحو العربي ٤١).

(ولهذا نقول إنّ الحديث عن دلالة الإعراب ارتبط بنشأة النحو لدى أبي الأسود، وإلاّ فكيف بادر إلى دفع الوقوع في الخطأ في الإعراب، دون (كذا) أن يعرف هذه الدلالة ودون أن يبصّر الذين وقعوا في الخطأ بهذا الربط بين الإعراب والمعاني الذي يدلّ عليها، وكيف يتسنّى لمثل ابنته أو لمثل الذي قرأ بجرّ لفظة الرسول في الآية الكريمة (:﴿إنّ الله بريء من المشركين ورسوله﴾)... أن يتجنّب الخطأ ما لم يبصّرهم بارتباط هذه الحركات بدلالة معيّنة أي ربطها بمعاني الكلام...) (دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء ٣٠)

وقد رجحنا أنّ انطلاق التفكير اللغوي العربيّ من التفكير في تصنيف الكلمات، وتبويبها بحسبِ ما يُلحظُ من أثرِ ضبط حروف القرآن الكريم بالعلامات الكتابيّة، استناداً

إلى ما يجمع أو يُفرّق بين الكلمات المضبوطة، فيكون التصنيف بحسب تمييز أجزاء الصنف الواحد، من لحظ الخصائص والفروق، أي أنّ الذي فكّر في الضبط لاحظ أوجه الشبه، ولاحَظَ أوجه الفرق والاختلاف.

وتعاورُ العلامات على مقاطع الحروف قد نبّه على ضرورة جعل المؤتلف في صنف محدّد، بحسب ما اختلفت عليه العلامات، أو قد يثبت واحد من هذه العلامات ليميّز الكلمات في صنف آخر، وربّما جرى تبادل بعضها لأسباب صوتيّة أو صرفيّة أو تركيبيّة أو دلاليّة، فكان الاختلاف والائتلاف سببًا من أسباب التصنيف بحسب العلامات، على مستوى الكلمة أو التركيب، وهذا ما جاء بمثله الدرس اللغويّ الحديث، في مثل قول المسدّي: (لقد أقامت اللسانيّات جوهر تعريفها للظاهرة اللغويّة على مفهوم العلامة، من حيث هي دليل لا يدلّ في بدئه بمقوّمات رمزيّة وإنّما يكتسب دلالته باتفاق عارض يضفي عليه قيمة الرمز) (مباحث تأسيسيّة في اللسانيّات ١٢٦).

وقوله: (أمّا اللغة فهي في مكوّناتها المبدئيّة مجموعة من العلامات تترابط فيما بينها ترابطًا عضويًا، ومعنى الارتباط في هذا السياق أنّ العلامات تحكمها علاقات من التوافق أو التطابق، ومن الاختلاف أو التضادّ، ومن التناظر أو التباين، ممّا يُنشئ شبكة من القرائن تتجاذب أطرافها، أو تتدافع، فتتحوّل الروابط إلى نظام من العلاقات، تتجاور أفقيًا، وتتراكب عموديًا، فإذا هي نسيج متكتّل الأبعاد... وليس للساني من مهمة... سوى استنباط الشبكة التصنيفيّة التي تقوّم الظاهرة اللغويّة) (مباحث تأسيسيّة في اللسانيّات ١٢٦ ـ ١٢٧).

وإنّ (مضمون أيّ علم من العلوم إنْ هو إلاّ نسيجٌ من الدوالّ هي بمثابة العلامات التي تحيل إلى مدلولات، ومجموع القرائن الرابطة بين هذه وتلك يمثل بنية ذلك العلم... إنّما الجدل الذي استمرّ حول علاقة اللسانيّات بعلم العلامات أيّهما الأصل، وأيّهما الفرع...) (قضيّة البنيويّة ٢٢، ١٢٣).

ويقول أيضًا: (إنّ أصل كلّ علامة هو مبدأ ـ التشكّل ـ ولكنّ أصل التشكّل هو توافر صورة حسّيّة تُدرك عبر إحدى قنوات الحواسّ الخمس من البصر والسمع واللمس والشمّ والذوق، فإذا ارتبطت هذه الصورة الحسّيّة باصطلاح ما بين طرفين متخاطبين على أقلّ تقدير نشأت العلامة...(و) العلامة تفصح عن وجودها بمجرّد ارتباط الشكل الحسّيّ بمبدأ

المواضعة... ولئن بدا بيننا كيف يمكن لأحدنا أن يواضع غيره على جملة من الأصوات إذا فاه بها دلّت على معنى يُحدّدانه سلفًا... يجوز التواضع على أشياء لا تكون قناتها السمع كما في حالة التصويت ولا البصر كما في حالة الصورة المرسومة خطًّا... ويتضح ذلك في مقامنا بما تنبني عليه اللغة في ركنها الأوّل أصوات والأصوات علامات دالّة... وكذلك الألفاظ... والجمل) (مباحث تأسيسيّة في اللسانيّات ١٢٨).

ولا نزعم أنّ القصد بالعلامات عند أولئك وهؤلاء واحد، لكنّ الشبه بيّنٌ، يتضح مما عرضناه سابقًا وممّا سنعرضه لاحقًا، لأنّ استعمال المصطلح هنا من باب التقريب والمشابهة لا المطابقة الكاملة.

وعن التمييز ومعرفة أجزاء الكلام، قال المسدّي أيضًا: (إنّ العبارة ليست إلاّ أصواتًا مقطّعة، تُحكى صيغتها صيغة ما هو قائم في النفس) (دراسات في اللغة ٤٣)، وهذا هو ما جاء في التفسير الكبير: (لا معنى للكلام اللساني إلاّ الاصطلاح من الناس على جعل الأصوات المقطّعة والحروف المركّبة معرفات لما في الضمائر) (٢٦/١).

وإنّ الذي كان قد سُمِّيَ بنقط الإعراب، كان تعيينًا لوحدات اللغة العربية مثلما كرّرنا، والنَّقطُ هو الآلية التي مكّنتْ من تعرّف ما يميّزُ حروف كلمات هذه اللغة، استنادًا إلى المحسوس الذي يدرك بالسمع، أو النطق، وكذلك بالنظر إلى ما يُكتبُ، أو يُقرأ، على وفق ما جرتْ عليه سَنَنِ العربية ونظامها اللغويّ، تلك هي الخطوة الأولى التي يُؤرّخ بها لنشأة التفكير اللغوي العربي، وهذا هو نطاق هذا البحث، الذي يحاول أن يؤصّل للقديم استنادًا إلى الدرس اللسانيّ الجديد.

المبحث الخامس

الوحدة الصوتيّة العربيّة

إنَّ تثبيت مؤسّس النحو العربي الوحدة الصوتية اللغويّة التمييزيّة التي ترافق الحرف العربيّ، قد يقابل اكتشاف الفونيم (Phoneme) عند الغربيين في العصر الحديث، والذي يقال عنه: (أصغر وحدة صوتيّة، عن طريقها يمكن التفريق بين المعاني) (دراسة الصوت اللغويّ ١٧٩)، أو (أنّه النماذج الصوتيّة التي لها قدرة على تمييز الكلمات وأشكالها) (م. ن

١٨٠)، وإنه اكتشاف لنظريّة لغويّة مهمّة، و(إنّ نظريّة الفونيم قد انبثقت من ملاحظة كيفيّات النطق المختلفة، ووظائف الأصوات المتنوّعة، ومن محاولة وضع ألفبائيّات للغاتٍ مختلفة) (م. ن ١٧١).

وقد صرّح دانيال جونز: (بأنّ أنظمة الكتابة الدقيقة تتطلّب لتركيبها نظريّة الفونيمات) (دراسة الصوت اللغويّ ١٧٣)، وقولهم: (إنّ اكتشاف الفونيم يُعّدُّ واحدًا من أهمّ الإنجازات التي حققها علم اللغة... يعادل اكتشاف الطاقة النوويّة، لأنّ هذا الكشف في مجال علم اللغة أدّى إلى ثورة في التفكير اللغويّ، كما أنّ كشف الطاقة النوويّة أدّى إلى ثورة في العلوم التقنيّة) (دراسة الصوت اللغويّ ١٦٦).

والفونيمات عند تروبتسكوي: علامات مُمَيّزة، مفهومها مفهوم وظيفي، وهي أصغر وحدة فونولوجية، لا تتبيّن إلا بالعودة إلى وظائفها في تركيب كلّ لغة، وباختلافها يمكن التمييز بين كلمة وأخرى، وتتحدّد بالاعتماد على الجانبين العضوي والسمعي، واهتمّ نادي براغ بالعلاقات الاستبدالية التي يتغير بحسبها لفظ الكلمة ومعناها (الأصول ١١٠). فالفونيمات: علامات مُمَيّزة، مفهومها مفهوم وظيفي، وباختلافها يمكن التمييز بين كلمة وأخرى، وتتحدّد بالاعتماد على الجانبين العضوي والسمعي، إذ (الفونيم صوت ذو قيمة خلافيّة) (اللسانيات ٧١).

وبالربط بين خطوات مؤسس النحو العربيّ، واكتشاف الفونيم ومفهومه الوظيفي، يتضح للمنصف التشابه، وتظهر مكانة نقط الإعراب، وأثرها الواضح لاحقًا في بناء علوم اللغة العربيّة، وتتأكّد أيضًا القيمة العلميّة لما تحقق في تلك المرحلة المبكّرة، أيّ أنّ الذي تحصّل هو ضبط موضع ما يُحوجُ إلى الضبط بالنقط، في أيّ موضع من مواضع الكلمة المفردة، أو المنتظمة في تأليف الكلام، هذه الآلية هي التي مكّنت من التعرّف على ما يميّز مقاطع الكلمات، على وفق ما جرى عليه نظام اللغة، وما يتلقاه السامع أو ينطقه الناطق، ومن ثَمّ ما يكتبه الكاتب.

وهنا لا بُدّ من لحظ اختلاف ما تحقق للعربيّة من منطلق ما طابق حاجتها، ومن ثباتها على هذه المطابقة، ومن تمسُّكها بماضيها، وحينئذٍ تتعذّر موازنة هذا الانجاز بما لم يتحقّق لغيرها من اللغات الأوربيّة التي انقطعت عن ماضيها (في علم اللغة العام ٦٠).

ولو عُدنا إلى خطوات الضبط أو النقط المنوّه عنها سابقًا لوجدناها خطوات عمليّة علميّة أولى، اتخذتها المراحل اللاحقة أساسًا لها، وقد أصّلت هذه الخطوات لبناء منهج لغويّ عربيّ راسخ، عبّرت عن تأمّل طويل لمتخصّصين أو منقطعين لتدارس القرآن الكريم، وقد ميّزوا أصوات اللغة العربية بعد ملاحظتها، ملاحظة ذاتيّة (Introspection)، ووصفيّة (Descriptive)، تمييزًا قائمًا على الملاحظة الذاتيّة البعيدة عن الافتراض أو التأويل (علم وظائف الأصوات اللغويّة الفونولوجيا ١٦١ - ١٦٤)، ومن ثَمّ كانت الأساس في نحو التجريد والتقعيد فيما بعد، أي أنّ استعمال المحسوس الصوتي في النطق والسماع، وكذلك المنظور في الكتابة، الذي مكّن من تمييز تنوّع صوت الحرف الواحد بالضبط المختلف، وكان ذلك بالاعتماد على الملاحظة الذاتيّة، وعلى وصف ما يُدركُ بالحواس موضعيًا، ذلك الذي أجراه أبو الأسود الدؤلي، والذي لا يُنسب تنفيذه إلاّ له، وكان ذلك تثبيتًا لواقع النطق والسماع، واتجاهًا سديدًا في التأسيس لعلم النحو لـ(أنّ العمل الثابت عن أبي الأسود الدؤلي في ضبط النصّ القرآني كان عملًا وصفيًا... لأنه قام على الملاحظة المباشرة لقراءة النصّ... وهذه صورة تمثل قارئًا يقرأ، وكاتبًا يلاحظ حركة شفتيه، حتى تكون الرموز وصفًا لهذه الحركة. ولا شكّ أنّ هذه التعبيرات التي أطلقها أبو الأسود على حركة شفتيه من فتح وضم وكسر كانت أساس المصطلحات الإعرابيّة في النحو العربي، وقد كان هذا الأصل الوصفي في وضعها ذا تأثير في دراستها عند أوائل النحاة) (النحو العربيّ والدرس الحديث ٥٥) وكان (أبو الأسود الدؤلي وضع النحو العربي بنقطه للمصحف، ذلك أنّ نقط المصحف قضيّة تعود إلى الإعراب بالدرجة الأولى، ومن فضول القول: إنّ الإعراب هو أساس النحو العربيّ، فإذا قلنا إنّ أبا الأسود قد وضع النحو العربي بنقطه للمصحف، فمعنى هذا أنّ أبا الأسود الدؤلي هو الذي وضع النواة للنحو العربيّ) (النحو العربي ومناهج التأليف والتحليل ٤٩).

وكان التمكّن من ضبط كتابة رموز الأصوات، مدخلًا إلى معرفة الأسرار اللغويّة، وهي الوسيلة التي صارت تُعينُ القارئ في التأكد من النطقِ الصحيح، وهي الأداة التي أفاد منها اللغويون في التحليل المقطعي: الصوتي والصرفي والتركيبي، ومن ثَمّ إدراك سرّ منظومة الصرف والإعراب، قال ابن حزم: (اختصاص اللسان العربي بالعلامة الإعرابية المتحكّمة في المعنى والوظيفة) (النظريّة اللسانيّة عند ابن حزم الأندلسي ١١).

صحيحٌ أنّ القياس الذي استقرّ لاحقًا في النحو العربي معيارٌ، وأنّه يعترض التطوّر ويعوق الظاهرة اللغويّة الطبيعيّة، لكنّه في أوّل وضعه وإقراره اتخذ من اللغة موضوعًا للعلم، ولاسيّما خُطوة وضع الوَحدة الصوتيّة العربيّة خطوة النشأة الأولى، فهو يقرّ (بما هو كائنٌ) بالفعل، ساعيًا في تنظيم أسس اللغة، وإبراز لخصائصها كما هي، واللسانيّات في المقابل لا تنفي علم النحو ولا تنقضه، بل إنّ وجودها متوقّف قطعًا على وجوده، إذ لا معنى للبحث اللساني ما لم يستنبط نظام اللغة عن طريق مؤسستها النحويّة (مباحث تأسيسيّة في اللسانيّات ١٣٤ ـ ١٣٥)، وهذا ما يشجعنا على الربط وعقد الموازنة، لتفهّم إجراءات الوضع النحويّ الأوّل، وتقويم الخطوات الأولى التي ابتُنِيَ بحسبهاهذا العلم الشامخ.

ومن ثَمّ اكتملت قوانين منظومة الضبط وما سمّي بالأبواب النحوية في مراحل متتابعة، إلى أن استوت ونضجت في مراحل لاحقة، فكانت الغاية في كتاب سيبويه، الذي كان أكبر من الردّ على انتشار اللحن بين الأعاجم، ممّن دخلوا في ركب الإسلام، ولا حتى بين العرب أنفسهم، لأنّ المُتحَقق والمتحصّلَ في هذا الكتاب تجاوز هذه القضية، قضية إصلاح الألسنة ومنع اللحن، وكان ذلك انطلاقًا من الضبط والقواعد اليسيرة التي تبوّب هذا الضبط، فكان التأسيس الكبير والبناء الشامخ، الذي يليق بسَعي أجيال أهل القرآن المنقطعين له، وبمن اغترفوا من باب مدينة علم الرسول ﷺ.

الخاتمة:

جاء الوضع اللغويّ العربيّ الأوّل بلقاء الإمام بأبي الأسود، بتمييز الكلم على أسس تجريبيّة محسوسة مدركة في النطق والسماع والنّظر، أثبتت الحقب المتتابعة صحة ما وضعَ أبو الأسود اليد عليه، ومن بعده تلامذته وتلامذة تلامذته، بكشف ما يتمّم الحروف في مقاطع لغويّة، كانت النّواة الأولى في بناء التفكير في الكلمات والجمل، فالحروف التي يُبنَى بحسبها الكلام العربيّ، فأظهر هذا الوضع أنّ لكلّ حرف تنوّعًا مقطعيًّا، بحسب الضبط الذي تضبط به: بالفتح والضم والكسر والسكون أو القطع أو سلب الحركة، وهذا الضّبط أظهر تغيّر المعنى معنى الفعل أو الاسم، وهذه الحركات هي نفسها الأساس المقطعيّ الحيوي في الاشتقاق والإعراب والوصل والقطع... إلخ، حتّى صارت الحركات لاحقًا دلائل على المعاني، فالضم علامة الفاعليّة، والفتح علامة المفعوليّة، والكسر علامة الإضافة (الإيضاح في علل النحو ٧٠).

هذا الذي نحن بصدده مفخرة للثقافة العربيّة، يمنحنا الثّقفة بالنفس وفرصة للتفاعل الإيجابيّ مع ما جاءت به اللسانيّات، ولاسيما التطبيقات التي تنفعنا، في حوار إيجابيّ، ومراجعة جديّة، ترفع مقام التأسيس الكبير لتثبيت التداول الصحيح لقراءة القرآن الكريم، تلك النعمة التي حَفِظَتِ النصّ ورعت لغته.

وأخيرًا نقول: إنّ منهج تقويم المُنجز اللغويّ العربيّ القديم لسانيًّا أمرٌ مشروع، بعد مُضيّ العشرات من السّنين، من التّفاعل مع تطوّر هذا الدرس، وتعدّد مدارسه، وتتابع المراجعة في الموازنة بين القديم والجديد، بلحظ الشبه والاختلاف، مع أنّ لهذا الدرّس إطاره، ولذاك إطاره المُختلف.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم

- أبنية الفعل أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب، د.عصام نور الدين، دارالفكر اللبناني١٩٩٧.
- الأصول، د.تمام حسان، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٨.
- الإيضاح في علل النحو، للزجاجي، تح د.مازن المبارك ط ٥، بيروت ١٩٨٦.
- بحوث ودراسات في اللسانيّات العربيّة، د. عبد الرحمن حاج صالح، الجزائر، ٢٠١٢.
- التفسير الكبير (مفاتح الغيب)، للفخر الرازي، القاهرة، د. ت.
- الخصائص، لابن جني، تح محمد علي النجار، بغداد، ١٩٩٠.
- دراسة الصوت اللغويّ، د. أحمد مختار عمر، القاهرة،٢٠٠٦.
- دروس في المذاهب النحوية، د. عبده الراجحي، بيروت، ١٩٨٠.
- دلالة الإعراب لدى النحاة القدماء، د. بتول قاسم ناصر، بغداد، ١٩٩٩.
- الصّاحبيّ في فقه اللغة لابن فارس، تح السيّد أحمد صقر، القاهرة، ٢٠٠٥.
- علم الصرف الصوتي، د. عبد القادر عبد الجليل، عمّان، ١٩٩٨.
- علم وظائف الأصوات اللغويّة الفونولوجيا، د.عصام نور الدين، بيروت، ١٩٩٢.

- في علم اللغة العام، د. عبد الصبور شاهين، بيروت، ط ٦، بيروت، ١٩٩٣.
- القرآن والتأسيس الصّوتي للنحو العربي، د. مهدي صالح سلطان، بغداد، ٢٠٢١.
- قضيّة البنيويّة، د. عبد السلام المسدّي، تونس، ١٩٩١.
- اللسانيّات المجال والوظيفة والمنهج، د. سمير ستيتيّة، ط٢، إربد، ٢٠٠٨.
- اللغة، لفندريس، تعريب عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الإنكلو مصرية، د. ت.
- اللغة العربيّة معناها ومبناها، د. تمام حسان، القاهرة، ٢٠٠٩.
- مبادئ اللسانيات اللغة العربيّة، د. محمد أحمد قدّور، دمشق، ٢٠٠٨.
- مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، تح أبو الفضل إبراهيم، مصر،١٩٥٤.
- مقدمة ابن خلدون، بيروت، ٢٠٠٧.
- مقدمة لدراسة اللغة، د. حلمي خليل، الاسكندريّة، ١٩٩٦.
- منطق العرب في علوم اللسان، د. عبد الرحمن حاج صالح، الجزائر، ٢٠١٢.
- النحو العربيّ والدرس الحديث، د. عبده الراجحي، بيروت، ١٩٨٦.
- النحو العربي ومناهج التأليف والتحليل، شعبان العبيدي، قار يونس، ١٩٨٩.
- نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء لأبي البركات الأنباريّ، تح د إبراهيم السامرّائي، بغداد، ١٩٥٩.
- النظريّة اللسانيّة عند ابن حزم الأندلسي، د. نعمان بو قرة، دمشق، ٢٠٠٢.
- نظرية النحو العربي، د. نهاد الموسى، بيروت، ١٩٨٠.